سـورة لقمان

وهي مكية، غير آيتين قال قتادة: أولهما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ [لقمان: ٢٧] إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وهي أربع وثلاثون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السور. و﴿تِلْكَ﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أي هذه تلك. ويقال «تيك آياتُ الكتاب الحكيم» بدلا من تلك. والكتاب: القرآن. والحكيم: المحكم؛ أي لا خلل فيه ولا تناقض. وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال؛ مثل: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة «هُدًى ورَحمَةٌ» بالرفع(١)، وهو من وجهين: أحدهما: على إضمار مبتدأ؛ لأنه أول آية. والآخر: أن يكون خبر ﴿تِلْكَ﴾. والمحسن: الذي يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. وقيل: هم المحسنون في الدين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥] الآية. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني. وقد مضى الكلام في هذه الآيات.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ في موضع رفع بالابتداء. و﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما(٢). وهو ممنوع بالكتاب والسنة؛ والتقدير: من يشتري ذا لهو أو ذات لهو؛ مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أو يكون التقدير: لما

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٩)

(٢) صحيح إلى ابن عباس وابن مسعود: الحاكم (٢/ ٤٤٥) في المستدرك وصححه، والبيهقي (٤/ ٥٠٩٦) في الشعب، والبخاري (١٢٦٥) في الأدب المفرد، وانظر الطبري (٢١/ ٨٣) في تفسيره.

كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشتراها للهو.

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]. قال ابن عباس: هو الغناء بالحِميَرِيَّة: اسْمُدِي لنا؛ أي غني لنا.

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في «الإسراء» الكلام فيه(١). وروى الترمذي عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القَيْنَات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام»، في مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾» إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة، والقاسم ثقة وعلّي بن يزيد يضعَّف في الحديث؛ قاله محمد بن إسماعيل (٢). قال ابن عطية: وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبدالله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعّي (٣).

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء. روى سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري قال: سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء والله الذي لا إله إلا هو؛ يرددها ثلاث مرات(٤). وعن ابن عمر أنه الغناء؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول(٥). وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبدالله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب(٦)؛ وقاله مجاهد، وزاد: إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل(٧). وقال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء(٨). وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل والباطل في النار. وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] أفحق هو؟! وترجم البخاري «باب كل لهو باطل إذا شغل عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه تعالى أقامرك»، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ فقوله: «إذا شغل عن طاعة الله» مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضا: هو الكفر والشرك. وتأوله قوم على الأحاديث التي يتلهى بها أهل الباطل واللعب.

---

(١) عند الآية (٦٤).

(٢) ضعيف: الترمذي (٣١٩٥) في التفسير، والطبري (٢١/ ٨١) في تفسيره وضعفه الألباني، وكذا ابن حجر (١١/ ١٩) في الفتح.

قلت: وذكر المصنف علته، وممن هم دون على بن يزيد، والقاسم لا يحتج بأحدهم.

(٣) صحيح: وانظر السابق، والطبري (٢١/ ٨٣) في تفسيره وما بعدها.

(٤) إسناد حسن: أبو الصهباء البكري هذا مقبول من الرابعة كما في التقريب (١/ ٢٧٨)، وانظر ابن أبي شيبة (٤/ ٣٦٨) في المصنف.

(٥) صحيح: وقد سبق.

(٦) صحيح موقوف: ابن أبي شيبة (٤/ ٣٦٨) في المصنف، والبيهقي (٤/ ٢٧٨) في الشعب، وانظر ابن نصر (٦٨٠) في تعظيم قدر الصلاة.

(٧) صحيح: وقد سبق.

(٨) لم أجده مسنداً: وانظر تفسير الحسن البصري (٢/ ١٩٩).

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار؛ فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد[١]؛ حكاه الفرّاء والكلبي وغيرهما. وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه؛ ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأول ظاهر في الشراء. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية مستعار، وإنما نزلت الآية في أحاديث قريش وتلهيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان ترك ما يجب فعله وامتثال هذه المنكرات شراء لها؛ على حد قوله تعالى ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة ١٦] اشتروا الكفر بالإيمان، أي استبدلوه منه واختاروه عليه. وقال مطرف: شراء لهو الحديث استحبابه[٢]. قتادة: ولعله لا ينفق فيه مالا، ولكن سماعه شراؤه[٣].

قلت: القول الأول أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبي والواحدي في حديث أبي أمامة: «وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[٤]. وروى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما: صوت مزمار ورنة شيطان عند نغمة ومرح ورَنَّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب»[٥]. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علّي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «بُعثت بكسر المزامير»[٦] خرجه أبو طالب الغيلاني. وخرج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «بعثت بهدم المزامير والطبل»[٧]. وروى الترمذي من حديث علّي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء» فذكر منها: «إذا اتخذت القينات والمعازف»[٨]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرت القيان والمعازف»[٩]. وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من جلس إلى قينة يسمع منها صب في أذنه الآنك يوم القيامة»[١٠]. وروى أسد

---

(١) ضعيف جدًا: للإعضال: الواحدي (ص٢٨٩) في أسباب النزول.

(٢، ٣) صحيح إليه: الطبري (٢١/ ٨٢) في تفسيره.

(٤) ضعيف: الهيثمي (٨/ ١١٩ـ ١٢٠) في المجمع وقال: «رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها وثقوا وضعفوا».

(٥) حسن: الترمذي (١٠٠٥) في الجنائز، عن جابر ـ رضي الله عنه، وذكره الهيثمي (٣/ ١٣) وعزاه للبزار قال: ورجاله ثقات.

(٦، ٧) ضعيف: الهيثمي (٥/ ٦٩) في المجمع، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه، وقال: «رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو: ضعيف».

(٨) ضعيف: الترمذي (٢٢١٠) في الفتن وضعفه الألباني هناك وفي المشكاة (٥٤٥١).

(٩) ضعيف: الترمذي (٢٢١١) في الفتن، وضعفه الألباني هناك وفي المشكاة (٥٤٥٠).

(١٠) موضوع: الألباني (٥٤١٠) في ضعيف الجامع و(٤٥٤٩) في الضعيفة وفيها، وقال: «باطل»، وعزاه لابن عساكر، عن أنس ـ رضي الله عنه. =

ابن موسى عن عـبدالعـزيز بن أبي سلمة عن مـحمد بن المنكـدر قال: بلغنا أن الله تعـالى يقول يوم القيامة: «أين عبادي الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان أحِلُّوهم رياض المسك وأخبِـروهم أني قد أحللت عليـهم رضواني»[١]. وروى ابن وهب عن مالك عن مـحمد بن المنكدر مـثله، وزاد بعـد قوله «المسك: ثم يقول للـملائكة أسـمـعوهم حـمـدي وشكري وثنائي، وأخبروهـم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وقـد روي مرفوعا هذا المعنى من حـديث أبي موسى الأشعري أنه قال قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين». فقيل: ومن الروحانيـون يا رسول الله؟ قال: «قراء أهل الجنة»[٢] خرجه الترمـذي الحكيم أبو عبدالله في «نوادر الأصول»، وقـد ذكرنا في كـتاب «التذكـرة» مع نظائره: «فمن شـرب الخمر فـي الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير فـي الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[٣]. إلى غير ذلك. وكل ذلك صحـيح المعنى على ما بيناه هناك. ومـن رواية مكحول عن عائشـة قالت قـال رسول الله ﷺ: «من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه»[٤]. ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء.

الثانية: وهو الغناء المعتاد عند المشـتهرين به، الذي يحرك النفوس ويبعثـها على الهوى والغزل، والمجون الذي يحـرك الساكن ويبعث الكـامن؛ فهذا النوع إذا كـان في شعر يُشَـبَّب فيه بذكـر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرمات لا يختلف في تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق. فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حـفر الخندق وحدو أنْجَشة[٥] وسلمة بن الأكوع[٦]. فأما ما ابتدعـته الصوفية اليوم من الإدمان على سـماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعـازف والأوتار فحرام. قال ابن العربي: فأمـا طبل الحرب فلا حرج فيه؛ لأنه يقيم النفـوس ويرهب العدو. وفي اليراعة[٧] تردد. والدف مباح. الجوهري: وربما سمّوا قصبة الراعي التي يزمر بها هيرعة ويراعة. قال القشيري: ضرب بين يدي النبي ﷺ يوم دخل المدينة، فهم أبو بكر بالزجـر فقال رسول الله ﷺ: «دعهن يا أبا بكر حتـى تعلم اليهـود أن ديننا فسيـح» فكنَّ يضربن ويقلن: نحن بنات النجـار، حبـذا محـمد من

= والآنك: الرصاص الأبيض النهاية (١/ ١٧٧) لابن الأثير.

(١) ضعيف: رواه هكذا بلاغًا ولا يصح رفعه إلا توفيق.

(٢) ضعيف: الألباني (٥٤٠٩) في ضعيف الجامع.

(٣) متفق عليه: وطرفه الأول عند البخاري (٥٥٧٥) في الأشربة، ومسلم (٢٠٠٣) في الأشربة، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

والطرف الثاني عند البخاري (٥٨٣٢) في اللباس، ومسلم (٢٠٧٣) في اللباس، عن أنس ـ رضي الله عنه.

(٤) منقطع: ومكحول لم يدرك ولم يسمع أم المؤمنين ـ رضي الله عنها، وانظر كنز العمال (٤٠٦٧٣) للمتقي الهندي.

(٥) حديث: «يا أنجشة رويدك ...» رواه البخاري (٦١٤٩) في الأدب، ومسلم (٢٣٢٣/ ٧٠) في الفضائل، عن أنس ـ رضي الله عنه.

(٦) وحديث سلمة بن الأكوع وعامر كان في خيبر، رواه البخاري (٤١٩٦) في المغازي، ومسلم (١٨٠٢) في الجهاد والسير عن سلمة بن الأكوع وحديث الخنق عند البخاري (٤١٠٦) في المغازي، عن البراء.

(٧) ضعيف: الترمذي (٢٢١٠) في الفتن وضعفه الألباني هناك وفي المشكاة (٥٤٥١).

جار[1]. وقد قيل: إن الطبل في النكاح كالدف، وكذلك الآلات المشهرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رفث.

الثالثة: الاشتغال بالغناء على الدوام سفه ترد به الشهادة، فإن لم يدم لم ترد. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألت مالك بن أنس عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال: إنما يفعله عندنا الفساق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبدالله الطبريّ قال: أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال: إذا اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ردها بالعيب؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأسا. وقال ابن خويز منداد: فأما مالك فيقال عنه: إنه كان عالما بالصناعة وكان مذهبه تحريمها. وروي عنه أنه قال: تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لي أمي: أي بنّي! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولست كذلك، فطلب العلوم الدينية؛ فصحبت ربيعة فجعل الله في ذلك خيرا. قال أبو الطيب الطبري: وأما مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النبيذ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشعبي وحماد والثوري وغيرهم، لا اختلاف بينهم في ذلك. وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه؛ إلا ما روي عن عبيدالله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأسا. قال: وأما مذهب الشافعّي فقال: الغناء مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته. وذكر أبو الفرج الجوزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاث روايات قال: وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخلال وصاحبه عبدالعزيز إباحة الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزهديات؛ قال: وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد؛ ويدل عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولدا وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها فقال: تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية. فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألفا؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوي عشرين ألفا؟ فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق.

وهذا دليل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظورا ما جاز تفويت المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحة للنبي ﷺ: عندي خمر لأيتام؟ فقال: «أرِقْها»[2]. فلو جاز استصلاحها لما أمر بتضييع مال اليتامى. قال الطبري: فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه. وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيدالله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسواد

---

(١) حديث أبي بكر ونهيه للجاريتين ليس فيه إلا أنهما غنتا شعراً يوم بعاث، وذكره البخاري (٩٤٩)، ومسلم (٨٩٢/ ١٦ـ ٢٠) كلاهما في العيدين، عن عائشة ـ رضي الله عنها.
أما قول الطبراني (يا حبذا هن من جار) فهو في أكثر من حادثة منها: عند دخوله المدينة وعودته من تبوك وغيرها وأسانيده ضعاف، واستغربه ابن كثير في البداية (٣/ ١٩٥) وهو عند البيهقي (٢/ ٥٠٨) في الدلائل.
قلت: وحديث: «إن ديننا فسيح» صحيح، رواه أحمد (٦/ ١١٦)، في المسند وله أصل في الصحيح، عن عائشة ـ رضي الله عنها.

(٢) صحيح: وقد سبق.

الأعظم»(١) «ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية»(٢). قال أبو الفرج : وقال القفال من أصحابنا : لا تقبل شهادة المغني والرقاص.

قلت: وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز. وقد ادعى أبو عمر بن عبدالبر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وحسبك.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي (٣): وأما سماع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيء منها عليه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها. أما أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرفث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز؛ مُنع من أوله واجتث من أصله. وقال أبو الطيب الطبري: أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم فإن أصحاب الشافعي قالوا لا يجوز، سواء كانت حرة أو مملوكة. قال: وقال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته؛ ثم غلظ القول فيه فقال: فهي دياثة. وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيها.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قراءة العامة بضم الياء؛ أي ليضل غيره عن طريق الهدى، وإذا أضل غيره فقد ضل. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وأبو عمرو ورويس وابن أبي إسحاق بفتح الياء (٤) على اللازم؛ أي ليضل هو نفسه. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم بالرفع (٥) عطفا على ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ ويجوز أن يكون مستأنفا. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفا على ﴿لِيُضِلَّ﴾. ومن الوجهين جميعا لا يحسن الوقف على قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والوقف على قوله: ﴿هُزُوًا﴾، والهاء في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ كناية عن الآيات. ويجوز أن يكون كناية عن السبيل؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي شديد يهينهم قال الشاعر:

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ... ما لَقِي الصَّليبُ مِنَ العَذابِ مهينا

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّىٰ﴾ أي أعرض. ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ نصب على الحال. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثقلا وصمما. وقد تقدم. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تقدم.

---

(١) معلول: كذا قال ابن حجر، وهو عند ابن أبي حاتم (٨٤) في السنة، عن ابن عمر، و(٨٤) مكرر من حديث أنس، وقال العراقي في تخريج أحاديث المنهاج: وقد جاء الحديث بطرق في كلها نظر.

قلت: ورواه ابن ماجه (٣٩٥٠) في الفتن عن أنس بسند ضعيف.

(٢) صحيح: مسلم (١٨٤٨) في الإمارة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٤٩٤) للقاضي ابن العربي المالكي ـ رحمه الله تعالى.

(٤، ٥) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص١٢٩، ١٥٩).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين. ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعدهم الله هذا وعدا حقا لا خلف فيه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ تكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في موضع خفض على النعت لـ ﴿عَمَدٍ﴾ فيمكن أن يكون ثم عمد ولكن لا ترى. ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من ﴿السَّمَوَاتِ﴾ ولا عمد ثَمّ البتة. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفا، ولا عمد ثَمّ؛ قاله مكي. ويكون ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ التمام. وقد مضى في «الرعد» الكلام في هذه الآية[1]. ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في موضع نصب؛ أي كراهية أن تميد. والكوفيون يقدرونه بمعنى لئلا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كل لون حسن. وتأوّله الشعبي على الناس؛ لأنهم مخلوقون من الأرض؛ قال: من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب، وظاهر القرآن يدل على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. والخلق بمعنى المخلوق؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعاينون ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي مخلوق الله، أي خلقها من غير شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشر المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ أي المشركون ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي خسران ظاهر. ﴿وَمَا﴾ استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره «ذا» و«ذا» بمعنى الذي. و﴿خَلَقَ﴾ واقع على هاء محذوفة؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه؛ والجملة في موضع نصب بـ ﴿أَرُونِي﴾ وتضمر الهاء مع ﴿خَلَقَ﴾ تعود على الذين؛ أي فأروني الأشياء التي خلقها الذين من دونه. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمت، أنحو أم شعر. ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب بـ ﴿أَرُونِي﴾ و«ذا» زائد؛ وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمت، أنحوا أم شعرا؟

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرف ﴿لُقْمَانَ﴾ لأن في آخره ألفا ونونا

(١) عند الآية (٢).

زائدتين؛ فأشبه فُعلان الذي أنثاه فُعْلَى فلم ينصرف في المعرفة لأن ذلك ثقل ثان، وانصرف في النكرة لأن أحد الثقلين قد زال؛ قاله النحاس. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح، وهو آزر أبو إبراهيم؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق[(١)] . وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة[(٢)] ؛ ذكره السهيلي. قال وهب: كان ابن أخت أيوب[(٣)] . وقال مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب[(٤)] . الزمخشري: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته[(٥)] ، وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذ كفيت[(٦)] . وقال الواقدي: كان قاضيا في بني إسرائيل[(٧)] . وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة[(٨)] ؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليا ولم يكن نبيا. وقال بنبوته عكرمة والشعبي؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوة[(٩)] . والصواب أنه كان رجلا حكيما بحكمة الله تعالى - وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدين والعقل - قاضيا في بني إسرائيل، أسود مشقق الرجلين ذا مشافر، أي عظيم الشفتين؛ قاله ابن عباس وغيره[(١٠)] . وروي من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله تعالى فأحبه، فمَنّ عليه بالحكمة، وخيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق؛ فقال: رب، إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء، وإن عزمت عليّ فسمعا وطاعة فإنك ستعصمني»؛ ذكره ابن عطية. وزاد الثعلبي: فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه المظلوم من كل مكان، إن يعن فبالحرى أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكن في الدنيا ذليلا فذلك خير من أن يكون فيها شريفا. ومن يختر الدنيا على الآخرة نفته

(١ - ٧) هي أقوال لا تعتمد على أساس من الصحة من قريب أو من بعيد، والقول بأن (تارح) هو والد إبراهيم عليه السلام لا يصح إلا إذا قيل بالنقل عن أهل الكتاب، فالقرآن صرّح بأنه (آزر) ثم فيهم الواقدي ووهب وغيرهما من النقلة عن التوراة وغيرها.
وانظر هذه الأقوال عند البغوي (٦/ ٢٨٦) في تفسيره.

(٨) صحيح الإسناد إلى سعيد بن المسيب: الطبري (٢١/ ٨٩) في تفسيره.

(٩) ضعيف: الطبري (٢١/ ٩٠) في تفسيره، عن عكرمة وفيه جابر وهو الجعفي ضعيف، وبه أعله الحافظ ابن كثير - رحمه الله - (٦/ ١٩٠) في تفسيره، وقال رحمه الله: (٦/ ١٩٠)، «اختلف السلف في لقمان هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة؟ على قولين: الأكثرون على الثاني يعني أنه لم يكن نبيًا»، ثم ذكر - رحمه الله - بعض الآثار، منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيًا، ومنها ما هو مشعر بذلك، وفي بعضها ما يشعر أنه كان عبدًا قد مسّه الرق، ثم قال - رحمه الله: وكونه عبدًا قد مسّه الرق ينافي كونه نبيًا؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، قال: ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيًا، قال: وإنما ينقل كونه نبيًا من عكرمة؛ إن صحّ السند إليه، وقال: بأنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة، قال: كان لقمان نبيًا. قال: وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم. ثم قال - رحمه الله: والذي رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقة في الإسلام، ولم يكن نبيًا، ولم يوح إليه. ا. هـ.
قلت: فهذا يدل على أنه كان عبدًا صالحًا ولم يكن نبيًا.

(١٠) وهذا قول مجاهد وخالد الربعي، وانظر الطبري (٢١/ ٨٩) في تفسيره.

الدنيا ولا يصيب الآخـرة. فعجبت الملائكة من حسن منطـقه؛ فنام نومة فأعطي الحكمة فـانتبه يتكلم بها. ثم نودي داود بعده فـقبلها - يعني الخلافة - ولم يشتـرط ما اشترطه لقمان، فهـوى في الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعـفو الله عنه. وكان لقمان يؤازره بحكمته؛ فـقال له داود: طوبى لك يا لقمان! أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء، وأعطى داود الخلافة وابتلي بالبلاء والفتنة[1]. وقال قتادة: خَيَّر الله تعالى لقمـان بين النبوة والحكمة؛ فاختـار الحكمة على النبوة[2]؛ فأتاه جبـريل عليه السلام وهو نائم فَذَرّ عليـه الحكمة فأصبح وهو ينطق بهـا؛ فقيل له كيف اختـرت الحكمة على النبوة وقـد خيّرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إليّ بالنبوة عَزْمة لرجوت فيـها العون منه، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إلي.

واختلف في صنعته؛ فقيل: كان خياطًا؛ قاله سعيد بن المسَيّب، وقال لرجل أسود: لا تحزن من أنك أسود، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان: بلال ومـهجع مولى عمر ولقمان[3]. وقيل: كان يحتطب كل يوم لمولاه حـزمة حطب. وقال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشـفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فـقلبي أبيض. وقيل: كان راعيا، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث، وترك ما لا يعنيني؛ قاله عـبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال خالد الربعي: كان نجارا؛ فقال له سيده: اذبح لي شاة وأتني بأطيبـها مضغتين؛ فأتاه باللسان والقلب؛ فقال له: ما كـان فيها شيء أطيب من هذين؟ فـسكت، ثم أمره بذبح شاة أخـرى ثم قال له: ألق أخبثـها مضغتين؛ فألقى اللسان والقلب؛ فقال له: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخـبثها فألقـيت اللسان والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيء أطيب مـنهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا[4].

قلت: هذا معناه مرفوع في غـير ما حديث؛ من ذلك قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسـد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كله وإذا فسـدت فسد الجسـد كله ألا وهي القلب»[5]. وجاء في اللسان آثار كثيـرة صحيحة وشهـيرة؛ منها قوله عليه السـلام: «من وقاه الله شر اثنتين وَلَجَ الجنة: ما بين لحـييه ورجليه...» الحديث. وحكم لقمان كثيرةٌ مأثورة هذا منها. وقيل له: أيّ الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئا.

قلت: وهذا أيضا مرفوع معنى، قال ﷺ: «كل أمـتي معافى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصـبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البـارحة كذا وكذا وقد بات

---

(١) ... الديلمي (٥٣٨٤).

(٢) ... انظر الطبري (٢١/ ٩٠) في تفسيره.

(٣، ٤) صحيح ... الطبري (٢١/ ١٨٩) في تفسيره.

(٥) صحيح ... وقد سبق.

(٦) صحيح ... وقد سبق.

يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»(١). وقال وهب بن منبه: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب. وروي أنـه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدروع، وقـد لين الله له الحديد كالطين فـأراد أن يسأل، فأدركته الحكمـة فسكت؛ فلما أتمهـا لبسها وقال: نعم لُـبُوس الحرب أنت. فقال: الصمت حكمة، وقليل فاعله. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيت حكيما(٢).

قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون ﴿أَنِ﴾ بمعنى أي مفسرة؛ أي قلنا له اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها؛ كـما حكى سيبويه: كتبت إليه أن قم؛ إلا أن هذا الوجه عنده بعـيد. وقال الزجـاج: المعنى ولقد آتينا لقمـان الحكمة لأن يشكر الله تعالى. وقيل: أي بأن اشكر لله تعالى فشكر؛ فكان حكيمـا بشكره لنا. والشكر لله: طاعته فيما أمر به. وقد مضى القول في حـقيقته لغة ومعنى في «البـقرة» وغيرها. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأن نفع الثواب عائد إليه. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي كفر النعم فلم يوحد الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي محمـود. وقال يحيى بن سلام ﴿غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ في فعله.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تـعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ قال السُّـهَـيْلي: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبـري والقتبي. وقال الكلبي: مشكم. وقيل أنعم؛ حكاه النقاش. وذكر القشيري أن ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما.

قلت: ودل على هذا قوله: ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وفي صحيح مـسلم وغيره عن عبدالله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظـلم نفسه؟ فـقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كـما تظنون إنما هو كمـا قال لقمـان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشـرك لظلم عظيم»(٣). واختلف فـي قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمـان. وقيل: هو خبر من الله تعالى منقطعا من كلام لقـمان متصلا به في تأكيد المعنى؛ ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أشفـق أصحاب رسـول الله ﷺ وقالـوا: أينا لم يظلم؛ فأنزل الله تعـالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكن إشفاقهم، وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبرا من الله تعالى؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك عن عبد قد وصـفه بالحكمة والسداد. و﴿وَإِذْ﴾ في موضع نصب بمعنى اذكر. وقال الزجاج في كتابه في القرآن: إن ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿آتَيْنَا﴾ والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. النحاس: وأحسـبه غلطا؛ لأن في الكلام واوا تمنع من ذلك. وقال: «يَا بُنِي» بكسـر الياء؛ لأنها دالة

(١) متفق عليه: البخاري (٦٠٦٩) في الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) في الزهد، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) الخبر الإسرائيليات: ورأيته في شعب الإيمان (٤/ ٢٦٤) للبيهقي، عن أنس، وفي الزهد (١/ ١٠٦) لابن أبي عاصم، عن أبي نجيح، وابن المبارك (١/ ٢٨٩) في الزهد، عن طاوس.

(٣) متفق عليه: البخاري (٤٧٧٦) في التفسير، ومسلم (١٢٤/ ١٩٧، ١٩٨) في الإيمان، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

على الياء المحذوفة، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده؛ وقد مضى في «هود» القول في هذا. وقوله ﴿يا بُنَيَّ﴾ ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنما هو على وجه الترقيق؛ كما يقال للرجل: يا أخي، وللصبي هو كُوَيِّس.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان. وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه؛ أخبر الله به عنه؛ أي قال لقمان لابنه: لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك، فإن الله وصّى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى. وقيل: أي وإذ قال لقمان لابنه؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه؛ أي قلنا له اشكر لله، وقلنا له ووصينا الإنسان. وقيل: وإذ قال لقمان لابنه، لا تشرك، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسنا، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنه؛ ذكر هذه الأقوال القشيري. والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص؛ كما تقدم في «العنكبوت»(١) وعليه جماعة المفسرين. وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعته أمه من شهود العشاء شفقة فلا يطعها.

الثانية: لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله ﷺ حين قال له رجل مَنْ أَبَرّ؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أبوك»(٢) فجعل له الرّبع من المبرة كما في هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله في «الإسراء».

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفا على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثقفي «وهَنا على وهَن» بفتح الهاء فيهما؛ ورويت عن أبي عمرو، وهما بمعنى واحد. قال قعنب ابن أم صاحب:

هَلْ لِلْعَوَاذِلِ مِنْ نَاهٍ فَيَزْجُرُهَا   إِنّ العواذل فيها الأيْن والوَهَن

(١) صحيح: وقد سبق عند الآية (٩) من سورة العنكبوت.

(٢) صحيح: البخاري (٥٩٧١) في الأدب، ومسلم (٢٥٤٨) في البر والصلة.

يقال: وَهَن يَهِن، ووَهُن يوْهَنُ ووَهِن يَهِن؛ مثل وَرِمَ يَرِم. وانتصب ﴿وَهْنًا﴾ على المصدر؛ ذكره القشيـري. النحاس: على المفعول الثاني بإسـقاط حرف الجر؛ أي حملته بضـعف على ضعف. وقرأ الجمهور : ﴿وَفِصَالُهُ﴾ وقرأ الحـسن ويعقوب«وفصـله» وهما لغتان، أي وفـصاله في انقضـاء عامين؛ والمقصـود من الفصال الفـطام، فعبّـر بغايته ونهـايته. ويقال: انفـصل عن كذا أي تميّـز؛ وبه سمي الفصيل.

الرابعة : الناس مُجْـمِعون علـى العامين في مدة الرضـاع في باب الأحكام والنفقـات، وأما في تحريم اللبن فحدّدت فرقـة بالعام لا زيادة ولا نقص. وقالت فرقة: العامان وما اتصـل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع. وقالت فرقة: إن فطم الصبّي قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرّم؛ وقد مضى هذا في «البقرة» مستوفى.

الخامسة : قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ ﴿أَنِ﴾ في موضع نصب في قـول الزجاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكـر لي. النحاس: وأجود منه أن تكون ﴿أَنِ﴾ مفسرة، والمعنى: قلنا له أن اشكر لي ولوالديك. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية. وقال سفيان ابن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ قد بينا أن هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقـاص لما أسلم، وأن أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية حلفت ألا تأكل؛ كما تقدم في الآية قبلها [(١)].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي مصـاحبا معروفا؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحبا. و﴿مَعْرُوفًا﴾ أي ما يحسن.

والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فـقيرين، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق. وقـد قالت أسماء بنت أبي بكر الصـديق للنبّي عليه الصلاة والسـلام وقد قدمت عليه خالتها وقيل أمها من الرضاعـة فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علّي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم»[(٢)]. وراغبـة قيل مـعناه: عن الإسلام. قـال ابن عطية: والظاهـر عندي أنها راغبـة في الصلة، وما كانت لتقدم على أسـماء لولا حاجتها. ووالدة أسماء هي قتيلة بنت عـبد العزّى بن عبد أسد. وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

الثامنة: قوله تـعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيـة لجمـيع العالم؛ كـأن المأمور الإنـسان. و﴿أَنَابَ﴾ معناه مـال ورجع إلى الشيء؛ وهذه سبـيل الأنبيـاء والصالحين. وحكى النقـاش أن المأمور سعـد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إن أبا بكر لما أسلم أتاه سـعد وعبدالرحـمن بن عوف وعثـمان وطلحة وسعيد والزبير فـقالوا: آمنت! قال نعم؛ فنزلت فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ

(١) صحيح : انظر قبل السابق .
(٢) صحيح : وقد سبق .

الآخرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] فلما سمعها الستة آمنوا؛ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] (١). قيل: الذي أناب النبي ﷺ. وقال ابن عباس: ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعويمر؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عتبة. ثم توعد عز وجل ببعث من في القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها (٢).

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه يا بنّي. وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة يقال: إن الحّس لا يدرك لها ثقلا، إذ لا ترجح ميزانا. أي لو كان للإنسان رزق مثقال حبّة خردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه؛ أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليّ.

قلت: ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ لعبدالله بن مسعود: «لا تكثر همك ما يقدر يكون وما ترزق يأتيك»(٣). وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا؛ سبحانه لا شريك له. وروي أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة التي تقع في سفل البحر أيعلمها الله؟ فراجعه لقمان بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات؛ أي إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقال حبة يأت بها الله؛ أي لا تفوت الإنسان المقدر وقوعها منه. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أي قدر حبة، وتصلح للأعمال؛ أي ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة. ومما يؤيد قول من قال هي من الجواهر: قراءة عبدالكريم الجزري «فتكِنّ» بكسر الكاف وشد النون، من الكّن الذي هو الشيء المغطى. وقرأ جمهور القرّاء ﴿إن تَكُ﴾ بالتاء من فوق ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب على خبر كان، واسمها مضمر تقديره: مسألتك، على ما روي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني؛ ويدل على صحته قول ابن لقمان لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية. فما زال ابنه يضطرب حتى مات؛ قاله مقاتل. والضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير القصة؛ كقولك: إنها هند قائمة؛ أي القصة إنها إن تك مثقال حبة. والبصريون يجيزون: إنها زيد ضربته؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا. وقرأ نافع

(١) رواه الواحدي (ص٢٩٠) في أسباب النزول، عن عطاء، عن ابن عباس دون إسناد.

(٢) لم أجده مسندًا.

(٣) ضعيف: البيهقي (١١٨٨) في الشعب، عن خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته، وقد ضعفه الألباني ـ رحمه الله ـ في ضعيف الجامع برقم (٦٢٦٤).

«مثقال»[1] بالرفع، وعلى هذا ﴿تَكُ﴾ يرجع إلى معنى خردلة؛ أي إن تك حبة من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فعلا فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة؛ كما قال: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنث وإن كان المثل مذكرا؛ لأنه أراد الحسنات. ومن هذا قول الشاعر:

مَشَيْنَ كَمَا اهتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسَفَّهَتْ   أعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَاحِ النَّوَاسِـم

و﴿تَكُ﴾ ها هنا بمعنى تقع فلا تقتضي خبرا.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم؛ أي أن قدرته تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء والأرض[2]. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض[3]. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت. وقال السّدي: هي صخرة ليست في السموات والأرض، بل هي وراء سبع أرضين عليها ملك قائم[4]؛ لأنه قال: ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ﴾ وفيهما غنية عن قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾؛ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يقال: قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيد؛ كقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١].

﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ وصّى ابنه بعظم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع. ولقد أحسن من قال:

وابدَأْ بِنَفسِكَ فَانهَهَا عَنْ غَيِّهَا   فَإِذَا انْتَهَت عَنْهُ فَأَنْتَ حكيمُ

في أبيات تقدم في «البقرة» ذكرها.

الثانية: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر؛ فهو إشعار بأن المغير يؤذي أحيانا؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوة في ذات الله؛ وأما على اللزوم فلا، وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «آل عمران» «والمائدة». وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل؛ وهذا قول حسن لأنه يعمّ.

الثالثة: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره. وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور؛ أي مما عزمه الله وأمر به؛ قاله ابن

---

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٤٣).

(٢ ـ ٤) سبق تكذيب هذه الرواية عند تفسير الآية (٢٢) من سورة البقرة وسيأتي في سورة القلم إن شاء الله.

جريج[١]. ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جريج أصوب.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن محيصن «تُصَاعِر» بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد ﴿تُصَعِّرْ﴾ وقرأ الجحدري: «تُصْعِرُ» بسكون الصاد؛ والمعنى متقارب. والصَّعَرُ: الميل؛ ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهر صعري، بعد أن أقمت صعره. ومنه قول عمرو بن حنّي التغلبي:

وكُنّا إذَا الجَبّارُ صَعّر خَدّهُ   أقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِه فَتَقَـوّمِ

وأنشده الطبري«فتقوما». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة. وفي بيت آخر:

أقمنا له من خدّه المُتَصَعِّرِ

قال الهروي «لا تصاعر» أي لا تعرض عنهم تكبرا عليهم؛ يقال: أصاب البعير صَعَرٌ وصَيَدٌ إذ أصابه داء يلوي منه عنقه. ثم يقال للمتكبر: فيه صعر وصيد؛ فمعنى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ أي لا تلزم خدّك الصعر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصْعَر أو أبْتَر»[٢] والأصعر: المعرض بوجهه كبرا؛ وأراد رذالة الناس الذين لا دين لهم. وفي الحديث: «كل صعّار ملعون»[٣] أي: كل ذي أبهة وكبر.

الثانية: معنى الآية: ولا تمل خَدّك للناس كبرا عليهم وإعجابا واحتقارا لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة[٤]. وقيل: هو أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره؛ فالمعنى: أقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا، وإذا حدثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه. وكذلك كان النبي ﷺ يفعل.

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[٥]. فالتدابر والإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك؛ وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرك؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صعر خده، وبه فسر مجاهد الآية. وقال ابن خويز منداد: قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة؛ ونحو ذلك روي عن

---

(١) صحيح إليه: الطبري (٢١/ ٩٥) في تفسيره.

(٢، ٣) ذكره ابن الأثير (٣/ ٣١) في النهاية.

(٤) ضعيف: للانقطاع بين علي بن أبي طلحة، وابن عباس ـ رضي الله عنهما الطبري (٢١/ ٩٦) في تفسيره.

(٥) صحيح: وقد سبق.

النبي ﷺ أنه قال: «ليس للإنسان أن يذل نفسه»(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبخترا متكبرا، مصدر في موضع الحال، وقد مضى في «الإسـراء». وهو النشاط والمشي فـرحا في غـير شغل وفي غـير حاجـة. وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء؛ فالمرح مختـال في مشيته. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزدي عن غضـيف بن الحارث قال: أتيت بيت المقـدس أنا وعبدالله بن عـبيد بن عـمير قـال: فجلسنا إلى عبدالله بن عمـرو بن العاص فسمعته يقـول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فـيقول: يا بن آدم ما غرك بي! ألم تعلم أني بيت الوحدة! ألم تعلم أني بيت الظلمة! ألم تعلم أني بيت الحق! يا بن آدم ما غرّك بي! لقد كنت تمـشي حولي فَدّادا. قال ابن عائذ قلت لغُـضيف: ما الفدّاد يا أبا أسـماء؟ قال: كبعض مشـيتك يا ابن أخي أحيانا (٢). قال أبو عبـيد: والمعنى ذا مال كثير وذا خـيلاء. وقال ﷺ: «من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة» (٣). والفخور: هو الذي يعدد ما أعطي ولا يشكر الله تعالى؛ قاله مجاهد (٤). وفي اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لما نهاه عن الخلق الذمـيم رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي توسّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء؛ أي لا تدب دبيب المتـمـاوتين ولا تثب وثب الشطار؛ وقـال رسول الـله ﷺ: «سرعـة المشي تذهب بهـاء المؤمن»(٥). فأما ما روي عنه عليـه السلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عـائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع - فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت؛ والله أعلم. وقد مدح الله سبحانه من هذه صفته حسبما تقدّم بيانه في «الفرقان».

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي انقص منه؛ أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه؛ فإن الجهر بأكثر مـن الحاجة تكلف يؤذي. والمراد بذلك كله التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذن تكلف رفع الأذان بأكثر من طاقته: لقد خشيت أن ينشق مُرَيطاؤك(٦)! والمؤذن هو أبو محذورة سمرة

---

(١) صحيح: سبق

(٢) خبر صحيح: ومثله لا يقال إلاّ عن توفيق والله أعلم، ابن عبـد البر (١٨/ ١٤٥) في التمهيد، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٨٨).

(٣) صحيح: وقد سبق.

(٤) صحيح إليه: االطبري (٢١/ ٩٧) في تفسيره.
وعزاه السيوطي (٥/ ١٣٩) في الدر المنثور لعبد بن حميد والحسن ـ رحمه الله.

(٥) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (٣٢٦٥) للألباني ـ رحمه الله، وقد سبق تخريجه مقطوعًا على الشعبي وغيره في سورة الفرقان.

(٦) ضعيف جدًا: الهيثمي (١/ ٣٠٦) في مجمع الزوائـد وعزاه لأبي يعلى، والبزار، وقـال: وفيه محـمد بن الحسن بن زبالة نسب إلى وضع الحديث.
قلت: رواه البيهقي (١/٣٩٧) في السنن الكبرى من طريق آخر..

ابن معير. والمريطاء: ما بين السرة إلى العانة.

الثالثة: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي أقبحها وأوحشها؛ ومنه أتانا بوجه منكر. والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه؛ ومن استفحاشهم لذكره مجردا أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عد في مساوئ الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرُّجلة(١). وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعا وتذللا لله تبارك وتعالى.

الرابعة: في الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والملاحاة (٢) بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا»(٣). وقد روي: أنه ما صاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطانا(٤). وقال سفيان الثوري: صياح كل شيء تسبيح إلا نهيق الحمير(٥). وقال عطاء: نهيق الحمير دعاء على الظلمة(٦).

الخامسة: وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم، أو بترك الصياح جملة؛ وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل، حتى قال شاعرهم:

جَهيرُ الكَلامِ جَهيرُ العُطَاسِ ... جَهيرُ الرُّوَاءِ جَهيرُ النَّعَم
ويَعْدُو على الأينِ عَدْوَى الظَّلِيم ... ويعْلُو الرِّجَالَ بخَلْقٍ عَمَم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي لو أن شيئا يهاب لصوته لكان الحمار؛ فجعلهم في المثل سواء.

السادسة: قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحد الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة، وهو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت. ويقال: صوت تصويتا فهو مصوِّت. ورجل صاتٌ أي شديد الصوت بمعنى صائت؛ كقولهم: رجال مال ونال؛ أي كثير المال والنوال.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) الرُّجلة: المشي راجلاً. اللسان «رجل».

(٢) الملاحاة: الخصومة. اللسان «ملح».

(٣) متفق عليه: البخاري (٣٣٠٣) في بدء الخلق، مسلم (٢٧٢٩/ ٨٢) في الذكر والدعاء، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٤ ـ ٦) انظر ابن عطية (١٣/ ١٩) في المحرر الوجيز.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ذكر نعمه على بني آدم، وأنه سخر لهم ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم. ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي أكملها وأتمها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة «وأصبغ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سفلها إلى علوها فتردها صادا. والنِّعم: جمع نِعْمَة كَسِدْرَة وسِدَر (بفتح الدال) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون «نعْمَةً»[(١)] على الإفراد؛ والإفراد يدل على الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وهي قراءة ابن عباس من وجوه صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام؛ قال النبي ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرة الإسلام وما حسن من خلقك، والباطنة ما ستر عليك من سيئ عملك»[(٢)]. قال النحاس: وشرح هذا أن سعيد بن جبير قال في قول الله عز وجل: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: يدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لما كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سمي نِعْمة. وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل. وقال المحاسبي: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العقبى. وقيل: الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوردي في هذا أقوالا تسعة، كلها ترجع إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ تقدمت. نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته[(٣)]؛ قاله مجاهد. وقد مضى هذا في «الرعد». وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث، كان يقول: إن الملائكة بنات الله[(٤)]؛ قاله ابن عباس. ﴿يُجَادِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير حجة ﴿وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي نَيِّر بيِّن؛ إلا الشيطان فيما يلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعد. ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فيتبعونه.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]. وفي حديث جبريل قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٥)].

---

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٩).

(٢) ضعيف: البيهقي (٨/ ٤١٩) في الشعب بإسنادين ضعيفين، وكذا ابن أبي الدنيا (٦/ ٢٩٠) في الشكر.

(٣) صحيح: سبق موصولاً مرسلاً عند الآية (١٣) من سورة الرعد.

(٤) ذكره البغوي (٦/ ٢٩١) في تفسيره دون عزو.

(٥) صحيح: قطعة من حديث مسلم (٨) في الإيمان، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه.

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله[1]؛ وقد مضى في «البقرة». وقد قرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار: « ومن يُسَلِّم وجهه ». النحاس: و﴿يُسْلِمْ﴾ في هذا أعرف؛ كما قال عز وجل ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ومعنى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عز وجل؛ ويكون « يُسَلِّم » على التكثير؛ إلا أن المستعمل في سلمت أنه بمعنى دفعت؛ يقال سلمت في الحنطة، وقد يقال أسلمت. الزمخشري: قرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: « ومن يُسَلِّم» بالتشديد؛ يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله تعالى؛ فإن قلت: ماله عدي بإلى، وقد عدي باللام في قول عز وجل: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؟ [البقرة: ١١٢] قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله؛ أي خالصا له. ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكل عليه والتفويض إليه. ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي مصيرها.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي نجازيهم بما عملوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نلجئهم ونسوقهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ ﴿مَن﴾ يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: ﴿كَفَرَ﴾ ثم قال: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ وما بعده على المعنى.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي هم يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا ينظرون ولا يتدبرون. ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ملكا وخلقا. ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي الغني عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرهم لينفعهم. ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي المحمود على صنعه.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

لما احتج على المشركين بما احتج بيّن أن معاني كلامه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهاية لها. وقال القفال: لما ذكر أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض وأنه أسبغ النعم نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاما، والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك

---

(١) إسناد رجاله ثقات: من غير طريق الطبري (٢١/ ١٠١) وقد سبق.

العجائب. قال القشيري: فرد معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحمل الآية على الكلام القديم أولى؛ والمخلوق لا بد له من نهاية، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفي النهاية عما يقدر في المستقبل على إيجاده، فأما ما حصره الوجود وعده فلا بد من تناهيه، والقديم لا نهاية له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى: ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ في آخر «الكهف». وقال أبو علّي: المراد بالكلمات والله أعلم ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحو مما قاله القفال، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة؛ لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية: يدل على أن المراد بالكلمات الكلام القديم. قال ابن عباس: إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيان كل شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراة قليل من كثير»(١) ونزلت هذه الآية، والآية مدنية. قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء؛ لأنه عز وجل علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من كل شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذّر، وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرف فيه من ضروب الطعم واللون؛ فلو سمى كل دابة وحدها، وسمى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحولت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كل زمان، وبين كل شجرة وحدها وما تفرعت إليه، وقدر ما ييبس من ذلك في كل زمان، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها، ثم كان البحر مدادا لذلك البيان الذي بين الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمده من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفال، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى. وقال قوم: إن قريشا قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر؛ فنزلت وقال السّدي: قالت قريش ما أكثر كلام محمد! فنزلت(٢).

قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال؛ كأنه قال: والبحر هذه حاله؛ كذا قدرها سيبويه. وقال بعض النحويين: هو عطف على «أن» لأنها في موضع رفع بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق «والبَحْرَ» بالنصب(٣) على العطف على «ما» وهي اسم «أن». وقيل: أي ولو أن البحر يمده أي يزيد فيه. وقرأ ابن هرمز والحسن «يُمِدّه»؛ من أمّد. قالت فرقة: هما بمعنى واحد. وقالت فرقة: مّد الشيء بعضه بعضا؛ كما تقول: مّد النيل الخليج؛ أي زاد فيه. وأمّد الشيء ما ليس منه. وقد مضى هذا في «البقرة». وآل عمران». وقرأ جعفر بن محمد«والبحر مُدَادُه». ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ تقدم. ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. تقدم أيضًا،

(١) ضعيف: الطبري (٢١/ ١٠٣) في تفسيره، من طريق ابن إسحاق وهو مدلس، وقد رواه بالعنعنة، عن أجل من أهل مكة.

قلت: وسبق سؤال الكفار عن الروح في سورة الكهف، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) مرسل: والسُّدي إذا تفرَّد فهو ضعيف.

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٥٩).

وقال أبو عبيدة: البحر ها هنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام، وأما الماء الملح فلا ينبت الأقلام.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال الضحاك: المعنى ما ابتداء خلقكم جميعا إلا كخلق نفس واحدة، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة. قال النحاس: وهكذا قدره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة؛ مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وقال مجاهد: لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون[١]. ونزلت الآية في أبي بن خلف وأبي الأسدين ومنبِّه ونبيه ابني الحجاج ابن السباق، قالوا للنبي ﷺ: إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما، ثم تقول إنا نبعث خلقا جديدا جميعا في ساعة واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٢]، لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلقه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدم في «الحج»، و«آل عمران». ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذللهما بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وإتماما للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأفوله لا يعدوه ولا يقصر عنه[٣]. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي من قدر على هذه الأشياء فلا بد من أن يكون عالما بها، والعالم بها عالم بأعمالكم. وقراءة العامة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. وقرأ السلمي ونصر بن عاصم والدوري عن أبي عمرو بالياء على الخبر. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقروا: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي الشيطان؛ قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العلي في مكانته، الكبير في سلطانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِي﴾ في موضع الخبر. ﴿فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ أي بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه. وقرأ ابن هرمز: «بِنِعِمَاتِ اللَّهِ» جمع نعمة وهو جمع

---

(١) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٢١/ ١٠٤) في تفسيره.

(٢) لم أجده مسندًا.

(٣) صحيح إليه: الطبري (٢١/ ١٠٥) في تفسيره.

السلامة، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت. ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ ﴿مِّنْ﴾ للتبعيض، أي ليريكم جري السفن؛ قاله يحيى بن سلام. وقال ابن شجرة ﴿مِّنْ آيَاتِهِ﴾ ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقاش: ما يرزقهم الله منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدعاء. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي صبار لقضائه شكور على نعمائه. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان. والآية: العلامة، والعلامة لا تستبين في صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء. قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾(١) [الذاريات: ٢٠] وقال عليه السلام: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»(٢).

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسحاب؛ وقاله قتادة: جمع ظلة؛ شبه الموج بها لكبرها وارتفاعها(٣). قال النابغة في وصف بحر:

يُمَاشِيهِن أخْضَرُ ذُو ظِلالٍ عَلَى حَافَاتِه فِلَقُ الدِّنَانِ

وإنما شبه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع؛ لأن الموج يأتي شيئا بعد شيء ويركب بعضه بعضا كالظلل. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يجمع لأنه مصدر. وأصله من الحركة والازدحام؛ ومنه: ماج البحر، والناس يموجون. قال كعب:

فَجِئْنَا إلى مَوْجٍ منَ البَحْرِ وسَطُهُ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ ومُقَنَّعُ

وقرأ محمد ابن الحنفية: ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ جمع ظل. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ موحدين له لا يدعون لخلاصهم سواه؛ وقد تقدم. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ يعني من البحر. ﴿إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال ابن عباس: موف بما عاهد عليه الله في البحر. النقاش: يعني عدل في العهد، وفّي في البر بما عاهد عليه الله في البحر(٤). وقال الحسن ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة(٥). وقال مجاهد ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ في القول مضمر للكفر(٦). وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: فمنهم مقتصد ومنهم كافر. ودل على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختار: الغدار. والختر: أسوأ الغدر. قال عمرو بن معد يكرب:

فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبا عُمَيْرٍ مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وَخَتْرِ

---

(١) صحيح إليه: الطبري (٢١/ ١٠٦) في تفسيره.

(٢) ضعيف جدًا: ضعفه الألباني (١٠/ ٢٣) في ضعيف الجامع.

(٣) أقوال الكلبي ومقاتل وقتادة: رواها البغوي (٦/ ٢٩٣) في تفسيره.

(٤) لم أجده مسندًا، وانظر التالي.

(٥) فتح القدير (٤/ ٣٤٣) للشوكاني غير مسند.

(٦) صحيح إليه: السابق، والطبري (٢١/ ١٠٧) في تفسيره.

وقال الأعشى:

بالأبْلَقِ الفَرْدِ منْ تَيماءَ مَنْزلُهُ حِصْنٌ حَصِينٌ وجَارٌ غَيْر خَتَّار

قال الجوهري: الختر الغدر؛ يقال: ختره فهو ختار. الماوردي: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: ختر يختر ويختُر بالضم والكسر خترا؛ ذكره القشيري، وجحد الآيات إنكار أعيانها. والجحد بالآيات إنكار دلائلها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن؛ أي خافوه ووحدوه. ﴿واخْشَوْا يوْمًا لاَّ يَجْزِي والِدٌ عن ولده ولا مولُودٌ هو جازٍ عن والده شيئًا﴾ تقدم معنى ﴿يَجْزِي﴾ في البقرة وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحله القسم»[(١)]. وقال: «من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له حجابا من النار»[(٢)]. قيل له: المعني بهذه الآية أنه لا يحمل والد ذنب ولده، ولا مولود ذنب والده، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر. والمعني بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار، ويكون الولد سابقا له إلى الجنة. ﴿إنَّ وعْدَ اللَّه حَقٌّ﴾ أي البعث ﴿فلا تغُرَّنَّكُمْ﴾ أي تخدعنكم ﴿الحياةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وما تدعو إليه فتتكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿ولا يغُرَّنَّكُم باللَّه الغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة والحديد بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهد[(٣)] وغيره، وهو الذي يغرّ الخلق ويمنيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة؛ وفي سورة «النساء» ﴿ يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ﴾. وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السميقع بضم الغين؛ أي لا تغتروا. كأنه مصدر غرّ يغر غرورا. قال سعيد بن جبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة[(٤)].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

زعم الفراء أن هذا معنى النفي؛ أي ما يعلمه أحد إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: وإنما صار فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنه ﷺ قال في قول الله عز وجل: ﴿وعِندَهُ مفاتحُ الغيْبِ لا يعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]: «إنها هذه»[(٥)].

قلت: قد ذكرنا في سورة «الأنعام» حديث ابن عمر في هذا، خرجه البخاري[(٦)]. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في

(١، ٢) متفق عليهما: وقد سبق تخريجهما.

(٣) صحيح إلى مجاهد وقتادة: الطبري (٢١/ ١٠٨) في تفسيره.

(٤) حسن: الطبرى (٢١/ ١٠٨) في تفسيره.

(٥) صحيح: وقد سبق. (٦) صحيح: البخاري (٤٧٧٨) في التفسير.

الأرحام وما تدري نفس ما تكسب غدا» قال: «صدقت»(١). لفظ أبي داود الطيالسّي. وقال عبدالله بن مسعود: كل شيء أوتي نبيكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ، الآية إلى آخرها(٢). وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبّي مرسل؛ فمن ادعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كـفر بالقرآن؛ لأنه خالفه(٣). ثم إن الأنبياء يعلمون كثيـرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم. والمراد إبطال كون الكـهنة والمنجمين ومن يستـسقي بالأنواء وقد يعـرف بطول التجارب أشـياء من ذكورة الحمل وأنوثتـه إلى غير ذلك؛ حسبما تقـدم ذكره في الأنعام. وقد تختلف التجـربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أن يهوديا كان يحسب حـساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئت نبأتك نجم ابنك، وأنه يموت بعـد عشرة أيام، وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لا يحـول علّي الحول حتى أموت. قال: فأين مـوتك يا يهوديّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عـباس: صدق الله. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فرجع ابن عبـاس فوجد ابنه محموما، ومـات بعد عشرة أيام. ومات اليـهوديّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال علّي بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجب الأحاديث. وقال مقاتل: إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبّي ﷺ فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني مـاذا تلد، وبلادنا جدبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمت مـتى ولدت فأخبرني متى أموت، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرني ماذا أعمل غدا، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية(٤)؛ ذكره القشـيري والماورديّ. وروى أبو المليح عن أبي عزّة الهذلي قـال قال رسول ﷺ: «إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجـة فلم ينته حتى يقدمها - ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ذكره الماورديّ، وخرجه ابن ماجة من حديث ابن مسعود بمعناه(٥). وقد ذكرناه في كتاب «التذكـرة» مستوفى. وقراءة العامة: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ مشددا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزه والكسائي مخففا. وقرأ أبي بن كعب: «بأية أرض»(٦) الباقون ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾. قال الفراء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أي، وقيل: أراد بالأرض المكان فذكر. قال الشاعر:

فَلاَ مُزْنَة وَدَقَتْ ودْقَهَا وَلاَ أَرْضَ أَبْقَل إِبْقَالَهَا

وقال الأخفش: يجوز مررت بجارية، أي جارية، وأية جارية. وشبه سيبويه تأنيث «أي» بتأنيث كل في قولهم: كلتهن. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿خَبِيرٌ﴾ نعت لـ ﴿عَلِيمٌ﴾ أو خبر بعد خبر. والله تعالى أعلم.

---

(١) متفق عليـه: هذا لفظ البخاري (٤٧٧٧) في التفسيـره، ومسلم (٩) في الإيمان، وله رواية عند مسلم (٨) في الإيمان، عن عمر ـ رضي الله عنه.

(٢) حسن إلى أبي مسعود: وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في التفسير (٦/ ٢٠٥): «إسنادٌ حسن على شرط أصحاب السنن»، ورواه أحمد (١/ ٣٨٦) في المسند، والطبري (٢١/ ١١٠) في تفسيره.
ورواه الطبري مسندًا صحيحًا (٢١/ ١١١).

(٣) لم أهتد إليه مسندًا. (٤) مرسل: مجاهد قد رواه كما عند الطبري (٢١/ ١٠٩) في تفسيره.
وانظر لباب النقول (ص٣١٩) للسيوطي وزاد عزوه لابن أبي حاتم.

(٥) صحيح بمجموع طرقه: رواه الترمذي (٢١٤٧) في القدر، وأحمد (٣/ ٤٢٩)، عن مطر بن عكاش رضي الله عنه، ورواه ابن ماجه (٤٢٦٣) في الزهد من طريق ابن مسعود ـ رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٦) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص٩٣).